التوسع البريطاني في الخليج العربي

الحملة ضد رأس الخيمة عام ١٨٠٩م

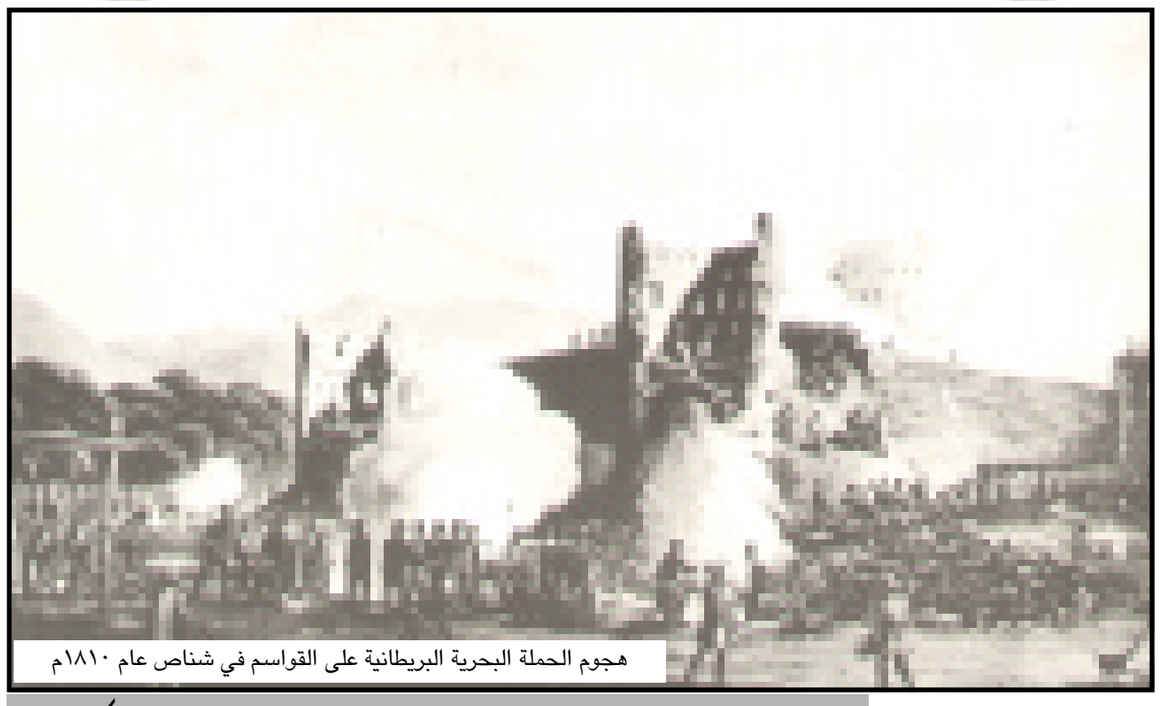
هجوم الحملة البحرية البريطانية على القواسم في شناص عام ١٨١٠م

وصلت السفن البريطانية إلى ميناء البصرة عام ١٦٣٩ وفي عام ١٦٤٣م سمح بفتح وكالة فيه

تعددت الدراسات والبحوث المتصلة بتاريخ الدور البريطاني والتوسع في منطقة الخليج العربي منذ المحالات الأولى للدخول الإنجليزي في هذا المكان حتى مراحل متأخرة من التاريخ السياسي المعاصر للجزيرة العربية، وهذا الجانب من الحدث السياسي في المنطقة شكل علامة فاصلة في الخروج من حقب البُعد الاجتماعي القديم، إلى دوائر المواجهة مع أهداف ومصالح قيمتها المادية ثروات تحت الرمال العربية وخطورتها السياسية تكمن في صناعة حضارة وهيمنة إستراتيجية دولية على هذا المكان، والعودة إلى المعلومات التاريخية في هذا المجال هي إعادة قراءة للموقع الجغرافي من خلال القرار السياسي وتلك هي النظرة الموضوعية في الراهن الذي يضع الاحتمالات من منطلق المسافة التي حددت العَلاّقة بين حدث الأمس وقرار اليوم.

نجمي عبد المجيد

بريطانيا والخليج العربي

بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠م صدر قرار ملكي من ملكة بريطاني اليزابيث "١٥٥٨ – ١٦٠٣م) بتأسيس شركة الهند الشرقية وكانت ملكة الإنجليز قد منحت هذه الشركة امتيازات التجارة في مناطق الهند والشرق.

وفي عام ١٦٠١م سجلت أول رحلة للشركة من لندن وتوغلت في المياه الشرقية حتى كان الوصول إلى سومطرة والتي هي بحاجة إلى منسوجات الهند، وبعد العودة قرر قادتها إنشاء مركز للشركة في سورات وعلى موجب ذلك حصلت على اتفاق تجاري مع السلطات المحلية في سورات عام ١٦١٢م وقد صدر فرمان سلطاني من السلطان جها نكير يؤكد من خلاله ذلك الاتفاق، وعلى ضوء ذلك أسست أول وكالة لشركة الهند الشرقية في شبه القارة الهندية.

تعود العلاقة بين شركةالهند الشرقية ومنطقة الخليج العربي إلى أوليات أيامها في الهند، حينما حدثت زيادة في الإنتاج وفائض من الأقمشة الصوفية الإنجليزية لديها ووجدوا لها سوق بطيبة في إيران وحصل رجال الشركة على فرمان من الشاه عباس الصفوي في عام ١٦١٩م بفتح وكالة للشركة في ميناء جاسك عند مدخل الخليج العربي بعيداً عن مضايقات البرتغاليين في مضيق هرمز، وبعد ذلك كان فتح وكالة في شيراز وأخرى في مدينة إصفهان وكان ذلك في عام ١٦١٧م، وفي عام ١٦٢٠م منع البرتغال سفن شركة الهند الشرقية من دخول ميناء جاسك، وحدث الصدام بين السفن الإنجليزية والسفن البريطانية، وساعدت شركة الهند الشرقية الشاه عباس الصفوي على طرد البرتغاليين بشكل نهائي من جزيرة هرمز عام ١٦٢٢م وبعد تلك الأحداث نقلت الشركة وكالتها من جاسك إلى ميناء بندر عباس.

وصلت السفن البريطانية إلى ميناء البصرة سنة ١٦٣٩م وأفرغت بضاعها فيه، وقد سمح لها بفتح وكالة جديدة في ذلك الميناء، وقد دمر الفرنسيون وكالة بندر عباس عام ١٧٥٩م، ولكن بعد مرور قرن من الزمن أغلقت حكومة الهند البريطانية تلك الوكالة عام ١٧٦٣م وتم نقل بضائع الشركة من بندر عباس إلى ميناء البصرة، وقد اعترف الباب العالي في تركيا بوكالة البصرة كقنصلية عام ١٧٦٤م تتمتع بنظام الامتيازات.

في عام ١٧٦٣م نجح رجال شركة الهند الشرقية في الحصول على الموافقة من كريم خان من أجل فتح وكالة جديدة لهم في منطقة بوشهر، وهذا العمل نقل مركز نشاط الشركة في أواخر القرن الثامن عشر من مدخل الخليج العربي عند جاسك وبندر عباس إلى أعلاه في البصرة وبوشهر، وبذلك أصبحت بريطانية صاحبة السيادة التجارية في هذه المنطقة بلا منازع وجعلت حكومة بومباي من ميناء بو شهر المقر الرئيسي لها في الخليج العربي، وفي بداية عام ١٨١٣م توقف النشاط التجاري للمعتمد البريطاني في بوشهر وتحول عمله إلى الجانب السياسي، كما حرصت حكومة بومباي على فتح وكالة لها في مسقط والتي كان يصل نفوذها من جزيرة كشم حتى ساحل أفريقيا الشرقي والتي تسيطر على مدخل طريق تجاري وبريدي له أهمية، غير أنّ حكام دولة البوسعيد كانوا لا يشجعون عملاً مثل هذا، وعندما تقدمت شركة الهند الشرقية عام ١٧٨٥م إلى حاكم عُمان السيد حمد بن سعيد تطلب منه فتح وكالة لها، ثم رفض هذا الطلب، وكان يمثل تلك الشركة في مسقط سمسار هندي يعمل على رعاية مصالحها في الميناء وينقل إليها الأخبار، وعندما عقدت حكومة بومباي اتفاقية مع السيد سلطان بن أحمد عام ١٧٩٨م سمح لها بقدوم ممثل رسمي عنها إلى عاصمته، غير أنّ هذا الغرض تأخر تحقيقه إلى عام ١٨٠٠م وفي الوقت نفسه كلفت وزارة الخارجية في لندن المستر هار فورد جونز ليشغل منصب المقيم البريطاني في بغداد لإحباط خطة بونابرت لغزو الهند وكان وصوله إلى بغداد في عام ١٧٩٧م.

كان ميناء مسقط قد قام بعملية توزيع تجارة الهند القادمة إلى الخليج العربي، أما ميناء البصرة فقد قام بتوزيع تجارة أوروبا الآتية عبر الطريق الصحراوي، وقد شاركت سفن عُمان السفن البريطانية والهندية في عملية النقل البحري، وقد نافس العتوب بعد نزولهم إلى البحرين عام ١٧٨٢م أهل عُمان، ورفضوا المرور بسفنهم على ميناء مسقط أثناء قدومهم من الهند وأصروا أن تنتهي رحلاتهم البحرية في البحرين والبصرة.

في عام ١٦٤٣م عرفت شركة الهند الشرقية بريد الصحراء بين البصرة وحلب منذ افتتاح وكالة البصرة فيها، حيث كانت تخرج القوافل من غرب الفرات بحراسة رجال من بدو تلك المناطق كانوا أصدقاء للشركة، ثم تعبر بادية الشام نحو حلب حيث تتولى الوكالة البريطانية التابعة لشركة شرق البحر الأبيض المتوسط عملية نقل البضائع والبريد بسفنها إلى الجزر البريطانية، وكان يستغرق وصول البريد ما بين الهند وبريطانيا عبر ذلك الطريق خمسة أشهر بينما كان يستغرق من طريق رأس الرجاء الصالح ١١ شهراً وفي عام ١٨٠٠م كتب مالكولم في تقرير له بأنّ المسافة التي تقطعها القافلة من الكويت إلى بغداد شهر، ومن الكويت إلى حلب ٨٠ يوماً وكانت قيمة البضائع التي تحمل على البعير ٧٠٠ جنيه إسترليني بما فيها الهدايا المقدمة لشيوخ القبائل الواقعة على جوانب الطريق وكان كل مقيم سياسي بريطاني في البصرة قد عمل على توثيق علاقاته مع شيوخ القبائل في البادية وقد قدرت الهدايا التي دفعها المستر مانستي عام ١٨١١م للشيوخ بستة عشر ألف روبية.

الصراع بين بريطانيا والقواسم

هذا جانب من تاريخ التوسع البريطاني في منطقة الخليج العربي، ويعود الوجود الأوروبي في هذه المنطقة إلى مطلع القرن السادس عشر عندما ظهر البرتغال في مياه الخليج وبسطوا هيمنتهم واحتكارهم لطرق الملاحة والتجارة في الخليج العربي والمحيط الهندي، وتؤكد الدراسات التاريخية أنّ عرب ساحل عُمان ومن بينهم القواسم كانوا من أهل البحر، وقد احترفوا هذا المجال منذ أمد طويل، التجارة والملاحة والغوص في البحر لاستخراج اللؤلؤ وصيد الأسماك وكانت هذه الأعمال من وسائلهم لكسب العيش، ولكن ظهور البرتغاليين أوصلهم إلى حرمانهم من هذه الموارد، ودفعهم للعمل والتعاون مع القوى المحلية والدولية لطرد الاستعمار البرتغالي من هذه المنطقة.

في عام ١٦٥٠م كان إنهيار النفوذ البرتغالي في منطقة الخليج العربي وأعقب ذلك صراعاً مريراً بين القوى الأوروبية الدولية والتي كانت في تلك الحقبة متمثلة في بريطانيا وهولندا وفرنسا وكلها سعت إلى مد نفوذها التجاري والسياسي في المنطقة، أما القوى البحرية في هذا المكان فقد تمثلت في العُمانيين والقواسم، وقد تزايد نشاط هذه القوى البحرية العربية على نحو ملموس ودخلت في صراع قوي فيما بينها، ومن جهة أخرى ضدّ التواجد الأجنبي في الخليج العربي كقوة بحرية لها أهمية في الخليج العربي جاء متزامناً مع إنهيار دولة اليعاربة والتي أعقبت التواجد البرتغالي، ولكنها تعرضت للفتن والصراعات الداخلية التي ساعدت على إضعاف مكانتها وأفسحت المجال أمام القواسم لكي يحملوا عبء المقاومة ضد الدول الأوروبية وفي مقدمتها بريطانيا.

وفي هذا الجانب يقول الدكتور عبد الوهاب أحمد عبد الرحمن :

(لعب زعيم القواسم المشهور الشيخ رحمة بن مطر دوراً بارزاً وحاسماً في الأحداث التي عصفت بدولة اليعاربة في عُمان بإنحيازه إلى الكتلة الغافرية بزعامة محمد بن ناصر الغافري ضد الكتلة الهناوية بزعامة خلف بن مبارك الهناوي.. وعلى إثر انتهاء حكم اليعاربة استقل الشيخ رحمة بن مطر بحكم رأس الخيمة وتوابعها في سنة ١٧٤١م واعترف له الإمام الجديد أحمد بن سعيد مؤسس دولة آل بوسعيد بالسيادة والاستقلال في منطقته.

ودخل القواسم بعد ذلك في مجابهات بحرية مع الإمام أحمد الذي كان يزعم، رغم اعترافه باستقلالهم، أنّ له حق السيادة عليهم، فقاموا بتعقب ومهاجمة السفن العُمانية ليجابهوا طموح الإمام العُماني، كما لم يترددوا في الاستيلاء على سفن بوشهر بزعم أنّها تحمل شحنات خاصة برعايا الإمام.)

شكل هذا الخلاف فرصة للتدخل البريطاني وخدمة للمصالح السياسية والاقتصادية، وشرعت بريطانيا في التدخل وتأجيج نيران الخلافات والإنحياز إلى حكام عُمان يحثونهم ويشجعونهم على التصدي للقواسم ووضع حد لنشاطهم البحري.

وفي عامً ١٨٦٠م تمكن القواسم من احتلال جزيرة قشم التي تقع في مضيق هرمز أمام سواحل بندر عباس وقد أقاموا فيها مركزاً تجارياً في ميناء باسيدو، ووصل نفوذهم إلى السواحل الشرقية للخليج العربي كما سيطروا لمدة من الوقت على لنجه وشيناص.

شكل صعود القواسم ونشاطهم البحري ضد السفن البريطانية غضب شركة الهند الشرقية والتي كانت قد انتهت من الحروب في الهند واطمأنت لأبعاد التوسع الفرنسي عن النمطقة وهدأت الأوضاع في شبه القارة الهندية وبلاد فارس، وعند ذلك عزمت على محاربة القواسم وجددت اتهاماتها لهم بالقرصنة، وأعطت تعليماتها للمقيم البريطاني في مسقط سيتون بالتعاون مع سلطان مسقط الجديد في ذلك الوقت بدر بن سيف لوقوف نفوذ القواسم، وفي تاريخ ٢٨ مايو عام ١٨٠٥م أبحر كابتن بريطاني من مسقط على ظهر السفينة البريطانية مور نجتون إلى ميناء بندر عباس لمساعدة سلطان عُمان الجديد الذي كان يستعد لمهاجمة ذلك البندر واستعادته من بني معين حلفاء القواسم.

وقد بلغت قوة القواسم وتحديهم لبريطانيا حين تقدمّ شيخ رأس الخيمة عن طريق حسين بن علي حاكم الرمس بطلب إلى حكومة بومباي البريطانية بدفع مبالغ مالية سنوية كرسوم مرور لشيوخ القواسم بمقابل السماح لسفنهم بالملاحة في مياه الخليج العربي، غير أنّ حكومة بومباي لم تستجب لتلك الطلبات والتي عدتها تجاوزاً وخدشاً بكرامة ومكانة بريطانيا العظمى، وواصل القواسم هجماتهم على السفن البريطانية وبعد ذلك استعدوا لمهاجمة ميناء البصرة والإنقضاض على التجارة الهندية وبذلك أصبحوا مركز خطر على المصالح البريطانية في الخليج العربي وسواحل الهند، وبعد تصاعد الأمر بصورة ملحوظة إثر التحذيرات التي وجهها الأمير الوهابي إلى سلطان مسقط حيث قوات القواسم، في هجومهم المتوقع على البصرة والإنقضاض على التجارة الهندية.

وبعد تلك الأحداث وفي أبريل عام ١٨٠٩م أصدر الحاكم البريطاني العام للهند أوامره إلى دنكان حام بومباي لتجهيز حملة بحرية عسكرية لتدمير قوة القواسم البحرية في الخليج العربي، انتقاماً للهجمات التي كانوا يشنونها على السفن البريطانية، كذلك هدفت الحملة إلى إطلاق سراح الأسرى والرعايا البريطانيين والذين كانوا قد وقعوا في أسر القواسم خلال معارك بحرية سابقة وأيضاً استرداد المواقع العُمانية التي انتزعها القواسم في خليج عُمان.

في الأيام الأوَل من شهر سبتمبر ١٨٠٩م صدرت الأوامر والتعليمات العسكرية من دنكان لقائدي الحملة البريطانيين الكولونيل جون وينرايت والرائد ليونيل سميث وهما من ضباط البحرية البريطانية في الهند بالتوجه على رأس قوة بحرية كبرى إلى منطقة رأس الخيمة، وكانت معقل القواسم لضرب وتدمير مراكزهم هناك وتحطيم السفن والقواعد التابعة لهم في الموانئ على طول السواحل الشمالية والشرقية من الخليج العربي، وفي تاريخ ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٩م أبحرت الحملة البريطانية على القواسم من بومباي في الاتجاه نحو مسقط والتي وصلتها بتاريخ ٢١ أكتوبر من العام نفسه، وفي اليوم الثالث للمعركة على أراضي رأس الخيمة تمّ إنزال القوة الرئيسة للحملة في الطرف الآخر، وزحفت نحو تحصينات القواسم وقد نجحت في إحداث ثغرة بها وتمكنت من السيطرة على بعضها، وبعد معركة رأس الخيمة وانسحاب القوات البريطانية منها إلى الشارقة والتي استسلمت لها، وبعدها هاجمت القوات البريطانية الحمراء، ثم تقدمت إلى لنجة ميناء القواسم والذي كان مزدهراً على الجانب الشرقي من الخليج العربي، وقامت بتاريخ ١٤ نوفمبر بمهاجمتها وحرقها كما قامت بحرق وتدمير ٢٠ سفينة شراعية، وما بين ١٨١٠ – ١٨١١م توقف نشاط القواسم البحري ضد السفن البريطانية.

المراجع

١ – إمارات الساحل وعُمان والدولة السعودية الأولى – ١٧٩٣ – ١٨١٨م، تأليف : الدكتور محمد مرسي عبد الله، المكتب المصري الحديث القاهرة – ١٩٧٨م.

٢ – الخليج العربي والمحرمات البريطانية الثلاث (١٧٧٨ – ١٩١٤م)، تأليف : الدكتور عبد الوهاب أحمد عبد الرحمن، مركز زايد للتراث والتاريخ – ٢٠٠٠م.

حرص كل مقيم بريطاني في البصرة على توثيق علاقاته مع شيوخ قبائل البادية وتقدر الهدايا التي دفعها المستر مانستي عام ١٨٠١م بحوالي ستة عشر ألف روبية

قلعتا جلالي وميراني بناهما البرتغال لحماية ميناء مسقط

في أبريل عام ١٨٠٩م أصدر الحاكم البريطاني العام للهند أوامره إلى دنكان حاكم بومباي لتجهيز حملة عسكرية بحرية لتدمير قوة القواسم البحرية في الخليج العربي

١٨١٠ – ١٨١١م توقف نشاط القواسم البحري ضد السفن البريطانية

الحملة البريطانية ضد القواسم في لفت على الساحل الايراني عام ١٨٠٩م

معركة شناص عام ١٨١٠م بين القواسم والبريطانيين